مجلـة الحكمة للدراسات التربوية والنفسية
Eissn :2602-5248 Issn : 2353-0456
المجلد 1 / العـدد: 03 (2013)، ص 28 - 38

إشكالية التربية في فكر عبد الرحمن الكواكبي

الأستاذ: بومانة محمد[1]
[1]قسم الفلسفة، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة زيان عاشور الجلفة- الجزائر.

تاريخ الاستلام: 2013/02/10 تاريخ القبول: 2013/02/26 تاريخ النشر:2013/03/01

يعد عبد الرحمن الكواكبي (**1855-1902**) أحد زعماء الإصلاح في العالم العربي الحديث، الذين اهتموا بمشكلاته، وأحسوا بمعاناته، وحاولوا البحث له عن مخرج من الويلات التي يتخبط فيها، رغم أنه دفع حياته في سبيل ذلك، لأن هناك شكوكا كثيرة حامت حول وفاته المفاجئة.(1)

لقد تطرق الكواكبي بجرأة كبيرة إلى مسألة التخلف الذي يعاني منه العالم الإسلامي، على خلاف العالم الغربي المتقدم، والذي يزداد تقدما يوما بعد آخر، وبعد تفكير طويل وعميق أدرك أن هذا (عهدا عم فيه الخلل والضعف كافة المسلمين، وكان من سنة الله في خلقه أن يجعل لكل شيء سبب، فلابد لهذا الخلل الطارئ والضعف النازل من أسباب ظاهرية غير سر القدر الخفي عن البشر).(2)وبالتالي فإن مسألة التخلف لها أسباب موضوعية داخلية، شرحها الكواكبي بإسهاب في كتابيه الشهيرين (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) و(أم القرى) (3).

لقد أورد الكواكبي في هذين الكتابين أسبابا كثيرة رأى أنها تمثل في مجملها أسباب الداء والفتور العام الملازم للمسلمين، وقسم تلك الأسباب إلى سياسية ودينية وأخلاقية تربوية (4)، لكنه رأى أن السبب الحاسم للتخلف الذي تغرق فيه الأمة هو الاستبداد الذي عرفه بأنه (صفة للحكومة المطلقة العنان فعلا

وحكما،التي تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محققين) [5]، أو هو (التصرف في الشؤون المشتركة بمقتضى الهوى) [6].

لقد وصل بغض الكواكبي للاستبداد إلى درجة أنه اعتبره (أشد وطأة من الوباء وأكثر هولا من الحريق، وأعظم تخريبا من السيل، وأذل للنفوس من السؤال) [7].

غير أن الاستبداد في تصور الكواكبي ليس نظام حكم سياسي فحسب، بل هو أخطبوط يمتد ويتشعب ويمس باقي جوانب الحياة، فهو يؤثر في الدين والعلم والمال والأخلاق والتربية، وفي كل ماله علاقة بالحياة، وقد ظهر ذلك بالأخص في كتاب(طبائع الاستبداد)، لكننا سنركز في هذا المجال على تصوره للعلاقة بين الاستبداد والتربية.

لقد احتل موضوع التربية مكانة هامة في تفكير الكواكبي، وتجلى ذلك بصورة واضحة في كتابيه السابقين، إلى درجة أنه جعل من التربية والتعليم السبيلين الوحيدين المناسبين للقضاء على الاستبداد، وبالتالي الخروج من التخلف، وهو ما سنتطرق إليه لاحقا.

لكن قبل ذلك دعونا نتطرق إلى تصور الكواكبي للعلاقة بين الاستبداد والتربية، وسنتكلم في هذا الإطار عن جملة من القضايا والإشكاليات التي تدل على الحس والوعي الكبيرين اللذين يمتاز بهما الكواكبي.

1)العلاقة بين الاستبداد والتربية هي دائما علاقة عداوة:

ينطلق الكواكبي في تحليله لعلاقة الاستبداد بالتربية من هذه المسلمة، فهناك عداوة كبيرة بين الاستبداد والتربية لدرجة أنهما لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يجتمعا معا، فـ(بين الاستبداد والعلم حربا دائمة وطرادا مستمرا، يسعى العلماء في تنوير العقول، ويجتهد المستبد في إطفاء نورها) [8].

إن الاستبداد والعلم في نظر الكواكبي (ضدان متغالبان، فكل إدارة مستبدة تسعى جهدها في إطفاء نور العلم، وحصر الرعية في حالك الجهل، والعلماء الحكماء الذين ينبتون أحيانا في مضايق صخور الاستبداد يسعون جهدهم في تنوير أفكار الناس، والغالب أن رجال الاستبداد يطاردون رجال العلم وينكلون بهم، فالسعيد منهم من يتمكن من مهاجرة دياره،وهذا سبب أن كل الأنبياء العظام عليهم الصلاة والسلام، وأكثر العلماء والأدباء النبلاء تقلبوا في البلاد، وماتوا غرباء،...) [9]، وهذا ما حدث أيضا مع الكواكبي، الذي رحل مكرها من حلب إلى القاهرة ومات فيها بسبب التضييق الذي عانى منه من رجال الدولة العثمانية، الذين لم يتقبلوا المعارضة الشديدة التي لاقوها من هذا الرجل فحاكوا ضده المؤامرات الدنيئة، وألصقوا به التهم الخطيرة، بعد ما فشلوا في استمالته إليهم، وفي الأخير دسوا له السم في الطعام مما أودى بحياته.

لكن السؤال المطروح هو: لماذا يكره المستبد العلم؟ يعطي الكواكبي العديد من الأجوبة على هذا السؤال، منها أن المستبد يدرك جيدا أنه لا استبداد مع العلم، ف(لا يخفى على المستبد مهما كان غبيا أن لا استعباد ولا اعتساف إلا مادامت الرعية حمقاء تخبط في ظلامة جهل وتيه عماء) [10]، فمن مصلحة المستبد أن تبقى الرعية في جهل مطبق، لأنه ما إن انتشر نور العلم في أمة ما، إلا وتزعزع عرش الاستبداد.

و يذهب الكواكبي إلى أبعد من ذلك، فهو يرى أن المستبد كما يبغض العلم لنتائجه، فإنه ببغضه أيضا لذاته، لأنه يدرك (أن للعلم سلطانا أقوى من كل سلطان، فلابد للمستبد من أن يستحقر نفسه، كلما وقعت عينه على من هو أرقى منه علما) [11].

موقف المستبد من العلوم:

يقسم الكواكبي العلوم التي يتعاطاها الناس إلى أربعة أقسام، ويرى بأن المستبد يختلف موقفه من هذه العلوم تبعا لدرجة خطورتها عليه.

1) علوم اللغة:

يرى الكواكبي بأن المستبد لا يخشى هذه العلوم لأن (بعضها يقوم اللسان، وأكثرها هزل وهذيان يضيع به الزمان، نعم لا يخاف علم اللغة إذا لم يكن وراء اللسان حكمة حماس تعقد الألوية، أو سحر بيان يحل عقد الجيوش) [(12)]، فالمستبد إذن لا يخشى هذا النوع من العلوم، لأنها بطبيعتها لا تتعلق بالأمور السياسية، وإنما همها الوحيد في - نظر الكواكبي – هو تقويم اللسان، وهذا لا يهدد كيان المستبد.

2) العلوم الدينية،

لا يخشى المستبد هذا النوع من العلوم، لكونها متعلقة (بالمعاد المختصة ما بين الإنسان وربه، لاعتقاده أنها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة، وإنما يتلهى بها المتهوسون للعلم حتى إذا ضاع فيها عمرهم، وإمتلأتها أدمغتهم، وأخذ منهم الغرور ما أخذ، فصاروا لا يرون علما غير علمهم، فحينئذ يؤمن المستبد منهم كما يؤمن شر السكران)[(13)]، فالمستبد إذن لا يخشى هذا النوع من العلوم، لاعتقاده بأنها تتعلق بالأمور الأخروية فقط، وليس لها علاقة بالسياسة.

3) العلوم الصناعية:

يرى الكواكبي بأن المستبد لا يخشى هذا النوع من العلوم،لأن (أهلها يكونون مسالمين صغار النفوس، صغار الهمم، يشتريهم المستبد بقليل من المال والإعزاز، ولا يخاف من الماديين لأن أكثرهم مبتلون بإيثار النفس، ولا من الرياضيين لأن غالبهم قصار النظر) [(14)].فالمستبد إذن لا يخشى هذا النوع من العلوم،لأن أهلها هم أبعد الناس عن السياسة.

4) علوم الحياة:

إذا كان المستبد في نظر الكواكبي لا يخشى الأنواع السابقة من العلوم، فإن موقفه يختلف تماما من علوم الحياة أو ما يسمى بالعلوم الاجتماعية، فـ (المستبد ترتعد فرائصه من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية، وحقوق الأمم وطبائع الاجتماع، والسياسة المدنية، والتاريخ المفصل، والخطابة الأدبية، ونحو ذلك من العلوم التي تكبر النفوس وتوسع العقول، وتعرف الإنسان ماهي حقوقه وكم هو مغبون فيها، وكيف الطلب، وكيف النوال، وكيف الحفظ)[15].

إن المستبد في نظر الكواكبي يخشى هذه العلوم الاجتماعية لأنها ترشد الناس وتنبههم إلى حقوقهم المهضومة في ظل الاستبداد، وهو الأمر الذي قد يدفعهم إلى المطالبة بها، وهو ما لا يمكن أن يقبله المستبد المتعود على الطاعة العمياء من الرعية.

التربية في ظل الاستبداد:

يرى الكواكبي أن التربية والاستبداد عاملان متعاكسان في النتائج، فكل ما تبنيه التربية مع ضعفها يهدمه الاستبداد بقوته[16] والحكومات المنتظمة غير الاستبدادية تعمل على تسهيل تربية الأمة، وتوفر جميع الشروط اللازمة لذلك، كأن تسن قوانين للنكاح، وتعنى بوجود القابلات والملقحين والأطباء، وتفتح بيوتا للأيتام اللقطاء، وتعد المكاتب والمدارس للتعليم من الابتدائي الجبري إلى أعلى المراتب.....وغيرها من الأمور التي تساعد على حسن تربية الأمة، دون أن تمس بحرية الفرد واستقلاله الشخصي، ويكون نتيجة ذلك أن تتأصل لدى المواطن الحر القيم السامية والسلوك القويم[17].

أما في ظل الحكومات المستبدة، فلا يمكن الحديث إطلاقا عن وجود التربية لأنها (محض نماء يشبه نماء الأشجار الطبيعية في الغابات والأحراش، يسطو عليها الحرق والغرق، وتحطمها العواصف والأيدي القوا صف)[18].

فلا مكان للتربية الصحيحة في ظل الاستبداد، وما (أبعد الناس المغصوبة إرادتهم المغلولة أيديهم عن توجيه الفكر إلى مقصد مفيد كالتربية)[19].

تربية خاصة بالاستبداد:

إن نفي الكواكبي لإمكانية وجود تربية في ظل الاستبداد لا يعني عدم وجود تربية إطلاقا، بل على العكس من ذلك، فالكواكبي يرى بأن المستبد يسعى إلى صياغة تربية ملائمة له، تعمل على توطيد سلطانه، لكن هذه التربية في نظر الكواكبي هي تربية مشؤومة، لأن (الاستبداد يضطر الناس إلى استباحة الكذب والتحيل، والخداع والنفاق والتذلل، إلى مراغمة الحس وإماتة النفس ونبذ الجد وترك العمل...إلى آخره، وينتج من ذلك أن الاستبداد المشؤوم، هو يتولى بطبعه تربية الناس على هذه الخصال الملعونة)[20].

ففلسفة المستبد في التربية تقوم على مبدأ تزييف وتحريف القيم الأخلاقية، فتجعل من الشر خيرا ومن الخير شرا، فالمستبد يذهب في فلسفته التربوية إلى أبعد نقطة (فيتصرف في أكثر الأميال الطبيعية والأخلاق الحسنة، فيضعفها أو يفسدها أو يمحوها)[21].

التربية المطلوبة:

يرى الكواكبي أن التربية هي ضالة الأمم، وفقدها هو المصيبة العظمى، وأن الإنسان لا يكون إنسانا إلا بالتربية، وهو لا يختلف في هذا الأمر مع ما أقره فلاسفة التربية الحديثة، وخاصة مع كانط الذي أكد على نفس الحقيقة، وقال بصريح العبارة (لا يستطيع الإنسان أن يصير إنسانا إلا بالتربية، فهو ليس سوى ما تصنع به التربية)[22].

كما يؤكد الكواكبي على الدور الحاسم الذي تلعبه التربية في التنشئة الاجتماعية للفرد، فالإنسان في نظره (كالغصن الرطب فهو مستقيم لدن بطبعه. ولكنها أهواء التربية تميل به إلى يمين الخير أو شمال الشر).[23] فليس هناك إنسان خير أو شرير بالطبع مثلما رأى بعض فلاسفة العصر الحديث، بل إن التربية التي يتلقاها في المجتمع هي التي تجعل منه شريرا أو خيرا، فالله خلق في الإنسان استعدادا للصلاح واستعدادا للشر، والتربية هي التي تربوا باستعداده جسما ونفسا وعقلا إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

وللتربية في نظر الكواكبي مراحل عديدة ومتتالية كما يلي:[24]

1) تربية الجسم وحده سنتين وهي وظيفة الأم والحاضنة.
2) تربية النفس إلى السابعة، وهي وظيفة الأبوين والعائلة معا.
3) تربية العقل إلى البلوغ، وهي وظيفة المعلمين والمدارس.
4) تربية القدوة بالأقربين والخلفاء إلى الزواج، وهي وظيفة الصدفة.
5) تربية المقارنة وهي وظيفة الزوجين إلى الموت أو الفراق.

ولابد أن تصحب التربية من بعد البلوغ تربية الظروف المحيطة، وتربية الهيئة الاجتماعية، وتربية القانون أو السير السياسي، وتربية الإنسان نفسه.

ومن خلال هذه المراحل نرى التوافق الكبير بين أفكار الكواكبي التربوية ومسلمات التربية الحديثة التي تؤكد على التدرج في التربية وفق مراحل نمو الطفل، مما يسمح بتنمية متوازنة ومنسجمة لقدراته.

هذا ويؤكد الكواكبي أن التربية المطلوبة هي (التربية المرتبة على إعداد العقل للتمييز، ثم على حسن التفهيم والإقناع، ثم على تقوية الهمة والعزيمة، ثم على التمرين والتعويد، ثم على حسن القدوة والمثال، ثم على المواظبة والإتقان، ثم على التوسط والاعتدال، وأن تكون تربية العقل مصحوبة بتربية

الجسم، لأنهما متصاحبان صحة واعتلالا.... وأن تكون تلكما التربيتين مصحوبتين أيضا بتربية النفس على معرفة خالقها ومراقبته والخوف منه)[25].

وهذا النوع من التربية لا يمكن أن يتحقق في ظل الاستبداد الذي ينمي قيما مخالفة لقيم هذه التربية المنشودة.

الدور الإصلاحي للتربية:

لقد أعطى الكواكبي للتربية دورا حاسما في القضاء على الاستبداد وإصلاح حال الأمة، وإخراجها من دوامة التخلف والانحطاط الذي تغرق فيه.

لقد شخص الكواكبي الداء – الذي هو التخلف المتأتي من الاستبداد – ولكنه أعطى أيضا الدواء، الذي هو أولا (تنوير الأفكار بالتعليم، وإيجاد شوق الترقي في رؤوس الناشئة)[26].

لقد وضع الكواكبي ثلاث قواعد أساسية للقضاء على الاستبداد، وتتمثل هذه القواعد فيما يلي:

1)الأمة التي لا يشعر كلها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية.

2)الاستبداد لا يقاوم بالشدة، إنما يقاوم باللين والتدرج.

3)يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد[27].

غير أن القاعدة التي تهمنا في هذا المجال هي القاعدة الثانية، والتي يؤكد من خلالها الكواكبي أن الاستبداد لا يجب أن يقاوم بالشدة والعنف، إنما يجب أن يقاوم باللين والحكمة والتدريج، و (الوسيلة الوحيدة الفعالة لقطع دابر الاستبداد هي ترقي الأمة في الإدراك والإحساس، وهذا لا يتأتى إلا بالتعليم و التحميس)[28].

ومن خلال هذا يؤكد الكواكبي وعيه بمخاطر الثورة العنيفة على الاستبداد والذي لا ينبغي أن يقاوم بالعنف، كي لا تكون فتنة تحصد الناس حصدا)[29]،

كما أن الثورة غالبا ما تكتفي بقطع شجرة الاستبداد، ولا تقتلع جذورها، فلا تلبث أن تنبت وتنمو وتعود أقوى مما كانت أولا.

لقد أدرك الكواكبي جيدا أن المستبد لا يمكن أن يتخلى بسهولة عن عرشه وسلطانه، الذي سخر من أجل توطيده كل ما يمكن تسخيره، وبالتالي فإن الأسلوب الأنجع في نظره هو التغيير التدريجي عن طريق التربية، وهذا التغيير قد يستغرق زمنا طويلا، لكن فائدته أعظم، وانطلاقا من هذه القاعدة دعا الكواكبي إلى تأسيس (جمعية تعليم الموحدين)[30] التي تعمل على نشر العلم الصحيح وإخراج الأمة من ظلام الجهل.

لهذا يرى الكواكبي أن الإصلاح الاجتماعي والتربوي هو السبيل الوحيد القادر على إخراج الأمة نهائيا من جحيم التخلف، وهو يتفق في هذا مع ما دعا إليه الشيخ محمد عبده الذي ركز على الإصلاح التربوي بدلا من الإصلاح السياسي.

فالكواكبي يقر إذن بأن الإصلاح الاجتماعي والتربوي هو الوسيلة المؤدية لا محالة إلى الإصلاح السياسي المنشود.

إن هذه الأفكار التربوية وغيرها، تدل على مكانة التربية في المشروع الإصلاحي الذي تقدم به الكواكبي، والذي لازلنا نجهل عنه الكثير، لذلك فإن هذه الإطلالة السريعة على إشكالية التربية في فكر الكواكبي هي دعوة إلى التمعن في العلاج الذي يقدمه هذا المصلح الكبير لأمراض الأمة والتي هي كما يقول بنت ألف عام أو أكثر.

الهوامش:

1) جان داية: الإمام الكواكبي فصل الدين عن الدولة، ط1، دار سوراقيا للنشر، ص24-25.

2) عبد الرحمن الكواكبي: الأعمال الكاملة، دراسة وتحقيق محمد جمال طحان، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية،2004، ص275

3) هناك كتب أخرى للكواكبي مثل: العظمة لله وصحائف قريش لكنها ضاعت بعد وفاته مباشرة.

4) عبد الرحمن الكواكبي: الأعمال الكاملة، ص358-364

5) المصدر نفسه، ص437

6) المصدر نفسه، ص435

7) المصدر نفسه، ص483

8) المصدر نفسه، ص458

9) المصدر نفسه، ص461

10) المصدر نفسه، ص457

11) المصدر نفسه، ص458

12) المصدر نفسه، ص457

13) المصدر نفسه، ص457-458

14) المصدر نفسه، ص458

15) المصدر نفسه، ص458

16) المصدر نفسه، ص495

17) السيد يوسف: عبد الرحمن الكواكبي، رائد القومية وشهيد الحرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2006، ص186

18) المصدر نفسه، ص497

19) المصدر نفسه،ص499

20) المصدر نفسه، ص499

21) المصدر نفسه، ص484

22) إمانويل كانط: تأملات في التربية، ماهي الأنوار؟ ما التوجه في التفكير؟ تعريب وتعليق محمود بن جماعة، دار محمد علي للنشر، ص14

23) عبد الرحمن الكواكبي: لأعمال الكاملة، ص495-496

24) المصدر نفسه، ص496

25) المصدر نفسه، ص504

26) المصدر نفسه، ص376

27) المصدر نفسه، ص529

28) المصدر نفسه، ص531

29) المصدر نفسه، ص532

30) المصدر نفسه، ص376